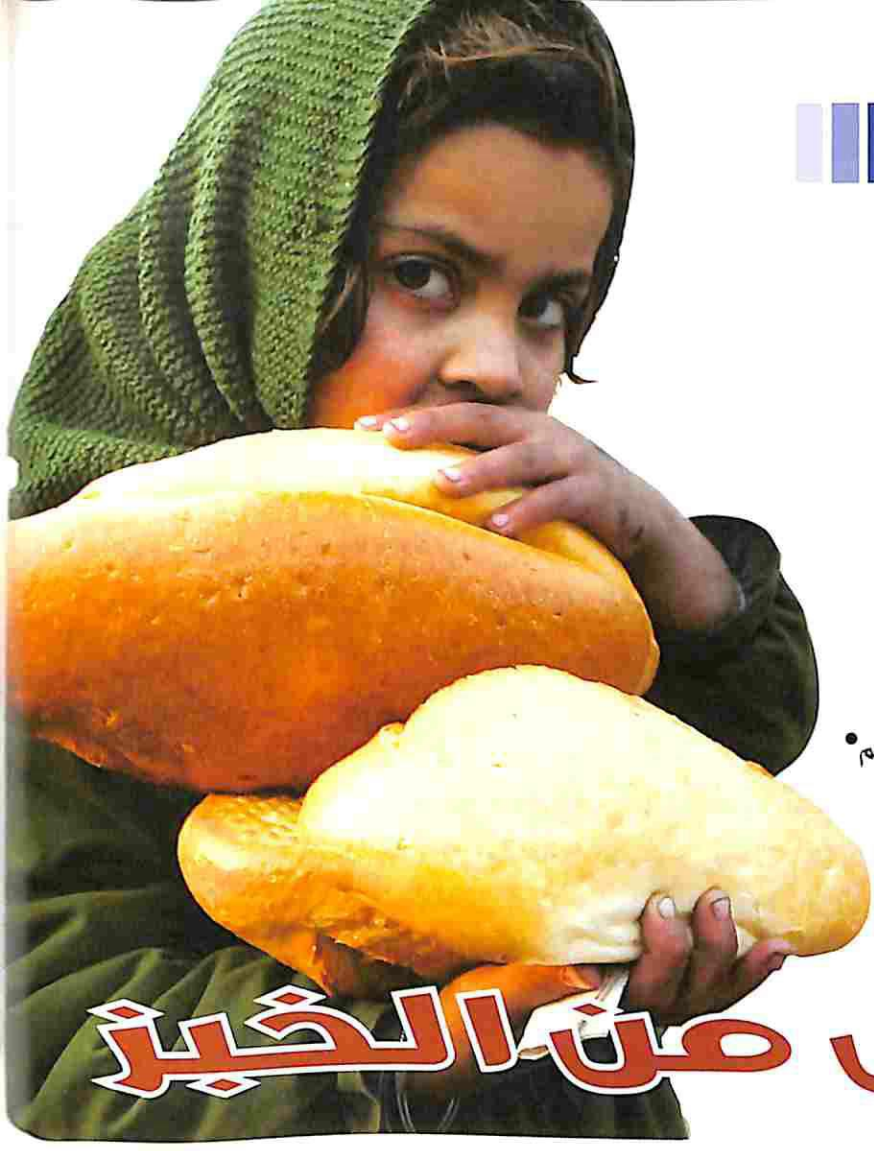

ترجمة: د. سمير عبدالحميد إبراهيم●

كيس من الخبز

سيد عاصم محمود - باكستان

كانت«سارة بيغم» تأتي إلى محلات «الحاج كرم الدين وأولاده» يوميا في تمام الساعة الخامسة مساء، وهي أسواق مركزية مملوءة بكل ما يحتاجه البيت تقريبا من مستلزمات وبضائع ومأكولات، كانت تتمعن في كل شيء، وتتفحص كل شيء، سواء علب البسكويت أو مكعبات الزبدة، أو حتى علب السمن المغلقة، أو حتى " الكيك "و"الجاتوه" الذي كان يجهز بطريقة خاصة في مخبز أسواق " الحاج كرم الدين وأولاده " الشهيرة.

حين كانت سارة بيغم تأتي إلى الأسواق، كان يستقبلها على الفور أحد العمال المكلفين بخدمة الزبائن، وقبل أن تتطلع هنا أو هناك كانوا يبادرونها بالسؤال:

- هل يمكن أن نساعدك؟ عن أي شيء تبحثين يا تُرى؟!

عندئذ كانت تسأل عن ثمن بضائع مختلفة، وتنصت إليهم وهي تتطلع إليهم بإمعان، وقد أخبروها أكثر من مرة أن"الكعك المحشو بالزبيب" ثمنه خمسون روبية، وأن علبة الشاي الصغيرة بأربعين روبية، وحين سمعت أن " كيلو " الحلوى بمائة روبية، هزت رأسها وكأنها تقول:

- آه! تذكرت الثمن، ربما أشترى الأسبوع القادم حين أدعو إلى بيتي بعض الأقارب.

● أستاذ اللغات الشرقية وآدابها جامعة دوشيشا – كيوتو. اليابان .

لكنها لم تدع إلى بيتها أحدا أبدا. ورغم مجيئها إلى أسواق "الحاج كرم الدين وأولاده" مدة ستة أشهر، لم تشتر شيئا ولا حتى بروبية واحدة، ومع هذا فهي لا تزال تأتي كل يوم في تمام الساعة الخامسة مساء، فتسرق «كيس» خبز، وتخفيه تحت عباءتها، ثم تخرج من المحل بهدوء.

إن سرقة الخبز بالنسبة للمرأة أمر صعب، لأن إخفاء كيس من الخبز أمر غير طبيعي على الإطلاق. لكن سارة بيغم كانت تأتي إلى "أسواق الحاج كرم الدين وأولاده"، وهي تلف جسمها بعباءة واسعة من القماش الثقيل، وكانت حين تسرق الخبز، تضعه تحت إبطها، ثم تضغط عليه بذراعها، وهكذا يختفي كيس الخبز تحت العباءة بسهولة ويسر، كان الخبز القمحي اللون الطازج، الذي يعد في فرن "أسواق الحاج كرم الدين وأولاده" قد جذب إليه الزبائن من كل صوب، وذاعت شهرته في المنطقة كلها.

وإن أردت أن تتذوق طعم هذا الخبز اللذيذ، فلتذهب فورا إلى حي«مُدل تاون» لتشتري الخبز الطازج المخبوز في فرن الحاج كرم الدين، لن تجد صعوبة في الوصول هناك، فرائحة الخبز اللذيذ سوف تجذبك إلى المكان دون عناء، ذلك الخبز الذي يضاعف من لذة الطعام، عدسا كان أو دجاجا، أو أي إدام! وهكذا ففي تمام الساعة الخامسة مساء يعج المحل بالزبائن، وتأتي سارة بيغم، فتسرق «كيس» الخبز ثم تمضي لحال سبيلها بهدوء وسكينة.. كان شاه دين هو أول من اكتشف السرقة!!

كان شاه دين هو ابن محمد دين أكبر أبناء الحاج كرم الدين، كان ابنا مطيعا.لا يزال يدرس في المرحلة الثانوية، وفي هذا العمر يضل معظم الأولاد سبيلهم، ويتجهون إلى قضاء أوقاتهم في اللهو واللعب، أما شاه دين فقد كان بعيدا عن كل هذا، فكان يخرج من المدرسة، فيذهب على الفور إلى البيت، حيث ينتهي من واجباته المدرسية، وفي المساء كان يذهب إلى المحل حتى يتمكن من مساعدة الآخرين العاملين فيه، خاصة في وقت الذروة، وهجوم الزبائن.

أما عمر دين الابن الثاني للحاج كرم الدين، فقد كان ولده الأكبر جاويد في البداية مهملا، يدور هنا وهناك، لا يبالي شيئا في الحياة، لكنه الآن تغير وصار يتحمل المسؤولية، بعد أن رأى سلوك شاه دين الجاد، كما كان الابن الثالث للحاج كرم الدين يساعد أيضا في العمل.

كنا نتحدث عن أمر السرقة، وأن شاه دين كان أول من اكتشف أمرها، لم يكن كغيره من بعض الشباب متسرعا، تحركه العاطفة، كما لم يكن يندفع سريعا في اتخاذ قراراته كغيره ممن هم في مثل عمره، في اليوم الأول، ساوره الشك، عندئذ قام في اليوم الثاني، وقبل مجيء سارة بيغم بدقائق، فسجل عدد " أكياس الخبز " الموضوعة على الأرفف، وبعد خروجها، عدّ الأكياس، فتحول شكه إلى يقين، فقد اكتشف غياب «كيس» من الخبز، من فوق الأرفف!

لو كان أحد غيره في مكانه، لصاح على الفور وهاج وماج، وعرف الجميع حين ذلك بأمر السرقة، لكن شاه دين ظل ينتظر اليوم التالي بصبر وتحمل، وحين حدثت السرقة أيضا في اليوم التالي، خرج في صمت وسكون خلف المرأة العجوز.. وبعد حوالي عشرين دقيقة، وجدها تدخل في مبنى قديم، يتكون من عدة شقق مختلفة المساحات، عرف شاه دين اسم المرأة وعنوانها من الحارس، واكتشف أنها تقيم في شقة قديمة متهالكة، تتكون من غرفتين فقط، رجع شاه دين بعد أن عرف المعلومات التي يريدها، ثم ذهب إلى والده، واختلى به في ناحية، وقص عليه القصة من أولها إلى آخرها.

استشاط محمد دين غضبا، لكنه ظل صامتا، لم يخبر شاه دين أحدا آخر بأمر السرقة، وظل صامتا كما فعل والده.

كان محمد دين يختلف من ناحية القوام والجسم عن بقية أفراد الأسرة، كانت زوجه شمسة تطهو ألذ أنواع الأطعمة، ومرة ظل يأكل وهو جالس على المائدة حتى شبع تماما، إلا أن هذه الأطعمة اللذيذة لم تتمكن من زيادة وزن محمد دين ولا حتى نصف كيلو، فقد كان نحيفا مثله مثل فيلسوف لا ينقطع عن التفكير.

في تلك الليلة، بعد تناول الطعام ذهب الجميع إلى غرفة الحاج كرم الدين للجلوس معه كالعادة لمدة نصف ساعة، والحاج كرم الدين لم يعد يفكر في مشاغل الحياة، فهو الآن يتمدد على الفراش أو يجلس على الكرسي يدخن النارجيلة، بينما لحيته البيضاء الطويلة، تحتك بصفحات الكتاب الذي يضعه فوق " كرشه " الممتلئ.

على مدى هذه نصف الساعة، يتبادل جميع أفراد الأسرة الأحاديث، وينصتون مستفيدين من تجارب جدهم وجدتهم، في تلك الليلة حين أوشكت الدقائق الثلاثون على الانتهاء بدأ محمد دين يقول:

- أريد أن أخبركم بشيء!

فتح الحاج كرم الدين إحدى عينيه، فارتفع شعر حاجبيه الأبيض وهو يقول:

- أي خبر؟

فقال محمد دين بهدوء:

- خبر سرقة!

عندئذ ساد صمت، وتحول الجميع إلى آذان مصغية، وفتح الحاج كرم الدين كلتا عينيه، فقط ظل شاه دين العاقل صامتا لم يقل شيئا.

قال محمد دين:

- امرأة عجوز.. لا أدري منذ متى وهي تسرق يوميا من المحل كيس" خبز "..

حركه الغضب.. فاحمرت عيناه من الغضب..فعاد الحاج كرم الدين إلى كرسيه، وغاص فيه من جديد، وأخرج "خرطوم " النارجيلة من فمه، وأرخاه على " كرشه " الضخم، وظل صامتا برهة، ثم تمتم قائلا:

- هذا كلام غير مفهوم!

صاحت ابنته بيغم جهان قائلة:

- مثل هؤلاء الناس مكانهم السجن.

فقال الحاج كرم الدين:

- هذا لص عجيب!

وقال خورشيد وهو ابنه الثالث الذي يعمل في المحل بلهجة غاضبة:

- أنا أعرف هذه العجوز المكارة.. فهمت.. عرفت.. من تكون!

تكلم الحاج كرم الدين ثانية، كان صوته أشبه بصوت الرعد يأتي من فوق السحاب:

- يا لها من امرأة عجيبة، تسرق فقط كيس خبز!!

كانت الكلمات الأربع الأخيرة على خلاف ما توقع الجميع، وكأن حية أصابت جميع من بالغرفة بعد سماعهم هذه الكلمات، فقد كانت تحمل في طياتها معاني خفية، تركت أثرها على أسرة الحاج كرم الدين كلها، صغيرها وكبيرها.

قال الحاج كرم الدين وهو يحاول أن يغير مجرى الحديث:

- تسرق.. كل يوم..فقط.. كيس.. خبز... واحد!!

وشدد على كلمة خبزوتوقف عندها لدرجة أن السامعين جميعا اقشعرت أبدانهم من رؤوسهم إلى أرجلهم.

استرخى الحاج كرم الدين في كرسيه ثانية، وأغلق عينيه من جديد ثم سحب "خرطوم " النارجيلة، ووضعه في فمه وبدأ صوت " الكركة" من جديد، وتصاعد دخان الطباق مرة أخرى.. بينما خرج الجميع من الغرفة في صمت وهدوء.

وفي اليوم التالي، عادت الأمور إلى طبيعتها.. لم يتحدث أحد مع الآخر بأي شيء مما حدث، لكن العجيب أنهم جميعاظلوا يفكرون في الموضوع نفسه.

كان السيد سليمان رجل الأعمال له أسهم أيضا في هذا المحل وكان ولداه يشرفان على

قسمين من أقسام المحل. في ذلك المساء التقى بمحمد دين وقد استشاط غضبا فقال:

- لقد عرفت أنها تلك العجوز التي تضع البرقع الأسود يا لها من لصة..

فنظر محمد دين إلى السيد سليمان، وكأنه ينظر إلى فراغ سحيق وقال:

- نعم..

ثم تطلع إلى السيد سليمان وسأله بصوت مملوء بمشاعر الإنسانية:

- أتدري ماذا تسرق؟

- أخبرني ولدي أنها تسرق "كيس" خبز.

فقال دين محمد:

- إنها تسرق كيس خبز.. لا علينا!

وكأن كهرباء سرت في دماغ السيد سليمان، فشعر بالخجل قليلا، ثم انفجر ضاحكا:

- صحيح.. لا علينا!

ثم أخذ يضحك ويقهقه بشكل غير طبيعي.

كانت هناك علاقات متينة تربط بين أسرة السيد سليمان التاجر الكبير وبين أسرة الحاج كرم الدين، ولهذا كانت المودة قائمة بينهم، وكان التفاهم أيضا ضروريا، لهذا فقد أدرك على الفور الموقف الذي يجب اتخاذه، تجاه سارة بيغم.

في ذلك المساء حين دخلت سارة بيغم المحل، استقبلها أصحاب المحل كالعادة بكل ترحاب، كانت ترتدي اليوم أيضا البرقع الأسود الذي غيرت الأيام من سواده فصار كالحا، كانت التجاعيد تملأ وجهها، لكنه يدل بوضوح على أن هذا الوجه كان ذات يوم جميلا جدا، لم يحاول أحد أن ينظر إليها أو يهتم بها حتى لا يلفت انتباهها.. كل ما فعلوه هو اهتمامهم العادي بمن حولها من الزبائن، بنفس الطريقة التي اعتاد عليها الجميع.

حسب العادة حين سئلت ماذا تريد؟ سألتهم عن ثمن " كيك الشيكولاته" وسألت عن ثمن الرمان القندهاري، وحين تحركت هنا وهناك تتفحص البضائع المعروضة، انشغل فجأة جميع العاملين في المحل، وكأن أمامهم أعمالا كثيرة يجب عليهم إنجازها.

استمر هذا الحال مدة ستة أشهر، لكن ذات يوم لم تأت سارة بيغم إلى المحل، شعر الجميع على الفور بغيابها، وفي ذلك اليوم دار حديث أيضا بالهاتف بين الحاج كرم الدين وبين السيد سليمان عن هذا الموضوع، وحين لم تأت في اليوم الثالث، ذهب شاه دين إلى مسكنها، وهناك عرف من إحدى العجائز أن سارة بيغم مريضة،وهي طريحة الفراش، ولهذا فهي تقيم في شقتها لا تبرحها، فرجع ليخبر الجميع بمرض سارة بيغم، وكان يشعر بالقلق والخوف الشديد من وقوع مكروه، لا يدري عنه شيئا.

ورأى محمد دين أن يتخلص من هذا القلق، فوصل إلى حل، ورغم أنه في الظاهر رجل جاف حاد المزاج لكن الأسرة كلها تتعجب من قدرته على حل القضايا والمشاكلات المعقدة.

في الليل وحين انفض الزبائن، وأغلقت أبواب المحل صاح محمد دين بصوت عال:

- ضع ثلاثة كيلوات من الرمان القندهاري في كيس وكيلو قهوة.. جاويد!

أخرج " كيكة بالشيكولاته" من الثلاجة، وضعها بطريقة طيبة في علبة جميلة.. أنت عمر دين..!

وهكذا طلب من كل واحد منهم أن يقوم بتجهيز شيء ما.

كان أولاد الحاج كرم الدين، وأولاد السيد سليمان رجل الأعمال متعاونين متفاهمين فيما بينهم، وكانوا يدركون أفكار بعضهم ويعقلونها، ويعتمدون على بعضهم، ولهذا كانت العلاقة بينهم متينة، وهكذا فهموا جميعا على الفور قرار محمد دين، وفي دقائق معدودات في ليلة من ليالي شهر يونيو الحارة، كانوا جميعا يحملون هذه الأشياء إلى بيت سارة بيغم.. وحين دخلوا المبنى وبدؤوا في صعود السلم، وجدوا بعض الأبواب مفتوحة.. فشموا روائح متنوعة ..

حين وصلوا إلى الطابق العلوي طرق محمد دين الباب، مرت لحظات لكن الباب لم يُفتح، فطرق الباب من جديد، لكنه لم يُفتح، فارتسمت على وجوه الجميع ابتسامة واسعة.

بدأ محمد دين يقرع الباب بشدة، فانفرج الباب قليلا، فمد رأسه إلى الداخل، ومن ورائه حاول الجميع أن يمدوا رؤوسهم، لينظروا ماذا في الداخل.!!

كان هناك مجلس تتوسطه طاولة كبيرة، تحتها سجادة قديمة من النوع الرخيص، وعلى الحائط رف وضع عليه خمسة أو ستة كتب، وفي الناحية الأخرى من الحائط علقت صورة رجل يرتدي سروالا وقميصا، ويضع على رأسه قبعة مثل قبعة محمد علي جناح مؤسس باكستان، فعرف الجميع على الفور أنه زوج سارة بيغم.

تفحص محمد دين الطاولة لآخر مرة، ثم تقدم ناحية الباب المغلق، ووقف الجميع دون أن ينطقوا بكلمة واحدة في صف واحد، كان في مقدمته محمد دين، وفي مؤخرته شاه دين، الذي كان يصغرهم جميعا، مع أنه كان من ناحية الذكاء لا يقل عن أكبر واحد في الأسرة.

قرع محمد دين الباب لفترة طويلة ولم يرد عليه أحد، فدق الباب بشدة، ومع هذا لم يرد أحد، وفي

النهاية حرك مقبض الباب، وفتح الباب ببطء شديد.. كان كل ما في الغرفة كرسي جلست عليه سارة بيغم، وهي تمسك في يدها ورقة، بينما رأسها يميل ناحية اليمين، كأنها غارقة في عالم من التفكير..

لم ينطق محمد دين بكلمة، تراجع ببطء إلى الوراء، ثم أغلق الباب وهو في حالة من اللاوعي،واتجه ناحية السلم ليعود من حيث جاء، ومع أن عدة أشخاص كانوا في الغرفة لكنهم جميعا عادوا من حيث جاؤوا في صمت، وكأنهم يتصرفون بعقلية رجل واحد، لدرجة أنهم لم يحملوا أي شيء مما وضعوه على الطاولة، ماذا أدراهم.. فربما يتحول فرحها إلى حزن؟!

نزل الجميع دون وعي على درجات السلم، كانت الدموع تترقرق في عيون شاه دين، بدأ محمد دين يحاول طمأنة ولده، فقد شعر بمدى ما اعتراه من حزن وأسى، ذلك هو شاه دين الذي عادة ما يطالع الصحف في الصباح الباكر، وهو ولد ذكي، وفطن، طالما قال عنه الحاج كرم الدين أنه سيصل إلى أعلى المراتب.

في صالة الطعام، نشر الصحيفة أمام والده، وأشار في صمت إلى عنوان مكتوب بخط واضح...

نظر محمد دين بإمعان إلى عنوان الخبر وبدأ في قراءته: (عجوز تعيش بمفردها تهب لأحبابها مئة ألف روبية) وحين طالع الخبر وقع نظره على اسم سارة بيغم فتطلع ناحية زوجته شمسة، التي كانت تقرأ الجريدة من خلفه، ولم ينطق بكلمة، لكن شمسة فهمت ما يعنيه زوجها، فذهبت لتتصل هاتفيا بالسيد سليمان رجل الأعمال، وفي غضون ساعة، تجمع الجميع، واتجهوا إلى المجلس حيث كان الحاج كرم الدين يجلس على كرسيه ويدخن نارجيلته.

فهم الحاج كرم الدين على الفور بحكم سنه وتجربته أن هناك خطبا ما، لأنه فتح كلتا عينيه عن آخرهما، وسأل محمد دين:

- ما الخطب؟!

فقرأ عليه محمد دين الخبر المنشور في الصحيفة، المتعلق بسارة بيغم، لقد وجدتها الشرطة، وقد فارقت الحياة، وفي يدها رسالة، يوصي فيها أحد أقاربها لها بمبلغ مئة ألف روبية.

قرأ محمد دين العبارة الأخيرة بلهجة ذات معنى، بينما أخذ أولاد الحاج كرم الدين، والسيد سليمان يتطلعون إلى بعضهم، فقط كان شاه دين وحده يجلس وقد لفه الصمت، واعتراه سكون عجيب، ربما لأنه كان قد قرأ الخبر كله وعرف ما فيه من قبل.

قال الطبيب بعد الفحص والمعاينة إن قلب العجوز كان ضعيفا! لهذا لم تستطع أن تتحمل شدة الفرح، الناتج عن نجاتها من حالة الفقر المدقع التي كانت تعيش فيه، وطبقا لتحقيقات الشرطة، فقد وجدت وصية كانت العجوز قد كتبتها قبل وفاتها بيد مرتعشة، كانت وصية في سطور مختصرة جاء فيها:

«أوصي بجميع ممتلكاتي في هذه الدنيا، لأسرتي الحاج كرم الدين، والسيد سليمان التي أشفقت عليّ، وحفظت عليّ كرامتي، واحترمت عجزي وتقدم عمري، حفظهم الله جميعا في أمن وأمان».

وجدت الشرطة قليلا من الأمتعة في شقة سارة بيغم، لكن حين تسلمت الشرطة مبلغ المئة ألف الروبية قامت على الفور، بتقسيمه على أسرة الحاج كرم الدين، وأسرة السيد سليمان.

وضع محمد دين الصحيفة على الطاولة، ثم خلع نظارته وأخذ ينظف عدساتها، من الدموع التي بللتها..

ساد الصمت الحجرة فترة، لم ينطق أحد بكلمة، وفي النهاية تنهد الحاج كرم الدين، وانطلقت منه آهة باردة، ثم رفع حاجبيه اللذين غطاهما المشيب، وقال بلهجة رقيقة:

- يحصدون ما يزرعون●. ■

● نشرت هذه القصة بصيغتها الأوردية في مجلة أردو دانجست الأدبية ، مايو ٢٠٠٢م.